AL-SABAH
الصباح الإسلامية
No. 5085 | الإثنين | 20 رجب 1446 هـ | 20 يناير 2025 م | السنة السابعة عشرة
Alsabah Media www.alsabahpress.com

التأمّل في آيات الله في الكون يدلّ على وحدانيته

كلما زاد الإيمان .. زادت الاستقامة

يُعّد الالتزام بأركان الإيمان الستّة أساساً للاستقامة، وكلّما زاد الإيمان زادت الاستقامة، قال -تعالى-: (إنَّ الذينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا)، وقد قال النبيّ -صلَى اللَه عليه وسلم-: (قُلْ: آمَنْتُ باللّه، ثم اسْتَقِمْ)، الذي فسّر بنفس معنى الآية الكريمة وهو أنّ الذين آمَنوا ووحدَوا الله -سبحانه وتعالى- هم الذين استطاعوا بعد ذلك أن يستقيموا على طاعته ولم يحيدوا أو يخرجوا عنها وهم الأفضل حالا والأكمل بشارةً من غيرهم، ومن العوامل التي تساعد على الثبات على الدين ما يأتي:

- الالتزام بما جاء في القرآن الكريم والسُّنّة النبويّة: يدلّ على ذلك قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (تركْتُ فيكم أمرين، لن تضلّوا ما تمسّكتُمْ بهما: كتابَ اللّه وسنّةَ رسوله)، وَيشمل ذلك التمسّك بسَنّة الخلفاء الراشدين والسلَف الصالحين، وترك الضلالات والبِدَع المحدَثات؛ كالتعبّد بالخُرافات والتوَسُّل بالأموات.
- المداومة على الطاعة وإن قلّت: يعدّ ذلك من وعود الله -تعالى- لعباده المؤمنين بتثبيتهم على فعل الطاعات وترك المُحرّمات لأنّ ذلك يحتاج إلى مجاهدة النفس وترويضها، وقد جاء في هذا المعنى العديد من الآيات الكريمة، ومنها قوله -تعالى-: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَول الثّابت في الحياة الدُّنيا وَفي الآخِرَةِ)، وقد حثّ الرسول -صلَى اللَه عليه وسلم- المسلمين على المداومة على الطاعة حتى وإنْ قلّت في قوله: (أَحَبُّ الأعْمالِ إلى اللهِ تعالى أدْوَمُها، وإنْ قَلّ).
- الدعاء والإلحاح على الله -تعالى- في طلب الهداية والثبات: يدعو المؤمن الله -تعالى- بكل طاقته ووقته؛ لأنّ القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يُقلّبها كيف يشاء إمّا إلى هداية وإمّا إلى غواية، ومن ذلك قوله -صلي الله عليه وسلم-: (إنَّهُ ليسَ آدميٌّ إلّا وقلبُهُ بينَ أصبُعَيْنِ من أصابعِ اللّه، فمَن شاءَ أقامَ، ومن شاءَ أزاغ).
- التفكر في الكون: يساعد التفكّر في الكون على تثبيت الإيمان في قلب الشخص؛ لأنّ التأمّل في آيات الله من شجر وزهر، ونهر، وسماء، وكل شيء في الكون يدلّ على وحدانية الله -تعالى- ومن ذلك قوله: (إنَّ في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ × الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).
- التفكر في آيات القرآن الكريم: يزيد التفكّر في آيات القرآن وتدبّرها والخشوع عند تلاوتها من إيمان المسلم ويُرشده إلى التوجيه الرباني والمحمديّ ويبعده عن التوجيه الشيطاني، قال -تعالى-: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا).
- اتّباع سنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يكون ذلك في جميع الأمور الظاهرة والباطنة كاللبس والجلوس والأكل، قال -تعالى-: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)، وذلك أنّ من لوازم التوحيد اتّباع سنّة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذا ممّا يُثّبت المسلم على إيمانه.
- الابتعاد عن المعاصي وترك جميع الذنوب: يكون ذلك بترك الصغائر والكبائر من الذنوب، ومصادقة الصالحين والابتعاد عن رفقاء السوء.
- الإكثار من ذكر الله -تعالى-: يقول ابن عباس: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها، وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس».
- الصبر على تنفيذ أوامر الله -تعالى-: يبيّن ذلك قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (إنّ من ورائكم أيامَ الصبر، الصبرُ فيه مثلُ قبضٍ على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسينَ رجُلًا يعمَلونَ مثّل عملَه. وزادَني غيرُه: قال: يا رسَولَ الله: أجرُ خمسينَ منهم؟ قالَ: أجرُ خمسينَ منكم).
- الابتعاد عن الفتن ماظهر منها وما بطن: يكون ذلك بسؤال الله -تعالى- أن يُبعد المؤمن عنها، وأن يحرص المؤمن على الابتعاد عنها وعن جميع أسبابها؛ ليصفو قلبه ويتذوق حلاوة الإيمان، وأن يراقب أوامر الله -تعالى- في أفعاله وأقواله ويحفظها فيحفظه الله كما في قوله -صلي الله عليه وسلم-: (احفظِ اللَّهَ يحفظكَ، احفظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ).
- المداومة على قراءة ورد من القرآن الكريم: يكون ذلك بعدم تركه مهما حصل، وأن يقرأه المسلم بتدبّر وفهم، وورد آخر من السنّة النبويّة حتى لو كان حديثاً واحداً في كل يوم.

الثبات عند الصحابة والسلف

يُثّبت الله -تعالى- أولياءه في الحياة الدنيا وفي الآخرة في مواقف الزلّات؛ لأنّ الإنسان قد يتعرّض لأمور تزّين له المعاصي وسبل الشر سواء كانت عوارض داخليّة كالنفس الأمّارة بالسوء، أوخارجية كالشيطان والناس ورفاق السوء، ولأنّ الدنيا دار ابتلاء وامتحان فلا بد أن يتميّز بها حزب الله من حزب الشيطان، وسيتم فيما يأتي بيان بعض مواقف الثبات على الإسلام عند الصحابة الكرام والسلف الصالحين:

- ثبات الصحابي بلال بن رباح -رضيّ الله عنه- عندما كان أميّة بن خلف يُعذّبه؛ بأن يُخرجه في وقت الظهر ويَطرحه في الأرض في مكّة المكرّمَة ويضع صخرة عظيمة على صدره، وكل ذلك كان من أجل أن يكفر بمحمّد -عليه السلام- ويعبد آلهتهم اللات والعزى، فثبت -رضي الله عنه- وهو في ذلك البلاء العظيم ويقول: «أحدٌ أحد».
- ثبات الصحابي عبد الله بن مسعود -رضيّ الله عنه- عندما كان يتعرّض للأذى والتعذيب والضرب على وجهه بسبب جهره بقراءة القرآن الكريم في مكّة المكرّمة، ويُسمع قريش ما يكرهونه في وقت اجتماعهم في أنديتهم عند الضحى ويرفع صوته بسورة الرحمن، ويثبت بالرغم من تعذيبه ويعود في اليوم التالي إلى نفس الفعل، ويؤمن أنّ الله -تعالى- سيمنعه منهم.
- ثبات سعيد بن المسيّب -رحمه الله- على أداء صلاة الجماعة في الصف الأوّل لخمسين سنة، ولم تكن تفوته تكبيرة الإحرام مطلقاً طوال هذه المدّة.
- ثبات الأعمش -رحمه الله- على الوقوف في الصفّ الأول في صلاة الجماعة في المسجد؛ فقد كان علّامة الإسلام وكان كثير التنسّك، وهذا ما ذكره عنه يحيى بن القطان.
- ثبات عطاء بن رباح شيخ الإسلام ومفتي الحرم على الصلاة الحسنة لمدّة عشرين سنة في المسجد، وهذا ما ذكره عنه ابن جريج.
- ثبات ومحافظة ربيعة بن يزيد على سماع آذان صلاة الظهر وهو في المسجد أربعين سنة، وعدم التأخر عنها إلّا في حالة المرض أو السفر، وهذا ما ذكره عنه أبو مسهر عن عبد الرحمن بن عامر.

أهمية الثبات على الإيمان

سُميّ الإنسان بذلك لكثرة نسيانه، وسُميّ القلب قلباً لكثرة تقلّبه ومن هنا جاءت أهميّة الثبات على الدين واعتبارها مطلباً أساسياً لكلّ مسلم يريد سلوك طريق ربّ العالمين، وتكمن أهميّة الثبات على الإيمان في أمور منها ما يأتي:

- انتشار أنواع الفتن والشهوات والشبهات وسائر أنواع المغريات في المجتمعات، ممّا يجعل المؤمن يحتاج لجهد إضافيٍ عمّا كان يحتاج له السلف للثبات على الدين، وخاصّة مع قلّة المُعينين، وندرة الإخوان الصالحين والناصرين.
- انتكاس بعض العاملين للإسلام، وكثرة حوادث الارتداد عن الدين والنقوص على الأعقاب؛ ممّا يُخيف المسلم ويجعله حريصاً على الثبات على الدين أكثر.
- ارتباط موضوع الثبات على الدين بالقلب؛ لأنّ القلب معروف بتقلّبه وتغيّره خاصّة مع رياح الشهوات والشبهات التي تصيبه ويصعب عليه صدّها إلّا بمجهود كبير، قال -صلى الله عليه وسلم-: (إنّما سُمِّيَ القلبَ من تَقلُّبه، إنّما مَثل القلبِ مَثَل ريشةٍ بالفلاةِ، تَعَلَّقَتْ في أصلِ شجَرة، يُقَلِّبُها الرّيحُ ظَهرًا لِبَطْن).

ويحرص المسلم أن يثبت على دينه وأن يسلك طريق الصراط المستقيم الذي يوصله بدوره إلى جنّة رب العالمين في الآخرة، ورضاه ورحمته وهدايته وتوفيقه في الحياة الدنيا.

الثبات على الحق وصية رسول الله

يُعتبر الثبات على الدين من الأمور الأساسيّة التي لا ينبغي لأيّ مسلم صادق يتحلّى بالعزيمة والرشد أن يستغني عنها بهدف بلوغ الصراط المستقيم لا سيّما في زمن المغريات والفتن والشهوات، فقد استمرّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- في دعوة الناس إلى توحيد الله -تعالى- عشر سنين في مكّة المكرّمة قبل أن يدعوهم إلى أداء ما افترض الله -تعالى- عليهم، وقد كانت دعوة جميع الرسل واحدة، وهي توحيد الله -تعالى-، والتي تظهر في قوله -تعالى-: (وَلَقد بَعَثنا في كُلّ أُمّة رَسولاً أن اعبُدُوا اللَّهَ وَاجتَنِبُوا الطاغوتَ)، كما ووَصّى الأنبياءَ أبنائهم للثبات على الدين الصحيح، قال -تعالى-: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)، وكلّ ذلك يدلّ على أهميّة الثبات على عبادة الله -تعالى- وحده لا شريك له.

وقد كان من أكثر ما يدعو به -صلى الله عليه وسلم-: (يا مُقلّبَ القلوب ثبّت قلبي على دينك)، وذلك لأنّ القلوب بطبيعتَها تتقلّبَ، وقد ضرب أهل الحقّ في كل مكان وزمان أروع الأمثلة في صبرهم وتحمّلهم للأذى والتعذيب، والثبات والتمسّك بالدين بالرغم من كلّ ذلك ابتداءً برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام وما واجهوه في بداية الدعوة ليرتدّوا عن دينهم، وذلك بشهادة أعدائهم كأبي سفيان قبل إسلامه وهرقل، عندما أُعجبُوا بعدم ارتداد أحد من المسلمين عن إسلامه في بداية الدعوة الإسلامية.

وقد واجه من بعدهم من التابعين والعلماء وصالح المؤمنين فتناً ومحناً عديدة ولم يتغيّر موقف أحد مهم، ومن ذلك ما يتعرض له المتأخرون من المسلمين في الأزمنة العديدة من فتن متنوعة من الشهوات والشبهات، والشهرة والمال والجاه، والظلم والسجن والاعتقال وصبرهم عليها كذلك، وقد واجه الأنبياء السابقون وأتباعهم من الأقوام السابقة مثل أصحاب الأخدود وغيرهم فتناً عديدة وصبروا عليها، حتى أنّ الإمام مالك -رحمه الله- عدّ الابتلاء سنّة الله -تعالى- مع المؤمنين؛ فقد قال -عزّ وجلّ-: (الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)، وصبَر المؤمن على الابتلاء يرفع من درجاته، وقد ورد ذلك في قوله -تعالى-: (وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).

كيف تكون الدعوة إلى الله ؟

الدّعوة في اللغة تأتي بعدّة معانٍ؛ منها: الطلب والاستمالة والنِّداء، والشّخص الذي يقوم بالدّعوة يسمّى داعية والجمع دعاة، وأمّا في الاصطلاح الشّرعيّ فالدّعوة تعتبر من الألفاظ المشّتركة، والتي يُقصد بها معنيين رئسيين عند إطلاقها؛ هما: معنى رسالة الإسلام نفسها، أو عملية نشر وتبليغ رسالة الإسلام للنّاس كافّة، وتعدّ الدّعوة إلى الله في الإسلام من أفضل الأعمال وأجلّ القربات، وقد بعث الله -تعالى- الأنبياء -عليهم السّلام- واصطفاهم للقيام بها، وجعل للقائمين عليها من النّاس أجوراً عظيمة وأفضالاً كثيرة، فهم ورثة هذه المهمّة عن الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام.

والدّعوة إلى الله -تعالى- هي دعوة إلى العدل والإحسان وإلى كلّ ما يطمئن القلب له من عقائد سليمة متوافقة مع الفطرة التي فطر النّاس عليها، وهي دعوة إلى الصّراط المستقيم الذي أمر باتّباعه الله تعالى، وهي دعوة إلى خير الأخلاق وأحسن الصّفات والخصال، وهي دعوة لفعل الخيرات واجتَناب السيئات وحفظ الحقوق ونشر المحبة والأخوّة بين النّاس، ولذلك فقد أمر الله -تعالى- ورغّب كثيراً للقيام بها في القرآن الكريم والسّنة النبويّة، وفي ذلك قال الله عزّ وجلّ: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّه وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

تَكونَ الدّعوةَ إلى اللهَ -تعالى- بأفضلِ الطّرقِ الممكنة؛ حتى يكون نتاجها مؤثّراً وقويّاً، ومن هذه الطّرق:

- اختيار الوقت المناسب لتقديم الدّعوة والتّوجيه والنُّصح والإرشاد.
- التلطّف والتودّد والابتعاد عن الغلظة والقسوة في دعوة النّاس إلى الإسلام وإلى توحيد الله عزّ وجلّ؛ وذلك بترك الألفاظ الجافّة والمنفّرة والشتائم والكلام البذيء، فالنّاس تحبّ الأسلوب اللطيف والتعامل الليّن.
- مخاطبة النّاس على قدر عقولهم؛ وذلك بتوضيح الكلام والتحدّث مع المدعوّين بما يمكنهم فهمه وليس بما يخفى عليهم؛ لأنّ المراد إفهامهم وتوصيل العِبر والدروس لهم.
- مراعاة الأولويّات في الدّعوة والتدرّج في الأوامر والنّواهي، ولا بأس بالسّكوت عن بعض أخطاء المدعوّين أحياناً إلى حين الوقت المناسب للتحدّث معهم.
- الاستعانة بالله -تعالى- والدّعاء للمدعوّ بأن يهديه الله عزّ وجلّ، مع عدم الاستعجال على تحصيل النتيجة والآثار المطلوبة.
- الإيجاز في الدّعوة وعدم الإطالة في وقت النُّصح والإرشاد؛ حتى لا تملّ نفوس المدعوّين.

حُكم الدّعوة إلى الله

تجب الدّعوة إلى الله -تعالى- على المسلمين بنوعين من الوجوب؛ هما: الوجوب الكفائيّ والوجوب العينيّ، فأمّا الوجوب الكفائيّ فهو أن تقوم طائفة أو مجموعة من المسلمين بالتصدّي لواجب الدّعوة إلى الله -عزّ وجلّ- ونشر دينه، وذلك على سبيل التفرّغ لهذا العمل فيبذلون في ذلك أقصى جهودهم، وأمّا على سبيل الوجوب العينيّ؛ فتجب الدّعوة إلى الله على كلّ مسّلم بقدر استطاعته وبحسب مكانه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنُكر ما أمكنه ذلك.

وتجب الدّعوة على من كان قادراً على إنشاء منصّات للدّعوة إلى الله -تعالى- وتبليغ رسالة الإسلام للنّاس جميعاً من خلالها؛ كالفضائيات ومواقع شبكة الإنترنت وغيرها من الوسائل التي بالإمكان الوصول من خلالها إلى النّاس البعيدين عن ديار الإسلام، فلا يُعذر المُستطيع على ذلك إن ترك ذلك لبخلٍ أو كسلٍ، وهذا الأمر يتعيّن على أولياء أمور المسلمين والأغنياء منهم أكثر من غيرهم بلا شكّ.

ثمرات الدّعوة إلى الله

شرع الله -عزّ وجلّ- الدّعوة إليه لحكَم وثمرات عظيمة، فبالدّعوة يكون صلَاح حال المجتمع القريب من الدّاعية، ثمّ يمتدّ ذلك الأثر فيشمل المجتمع عامّة، وهي طريقة لدخول النّاس في الإسلام ونجاتهم من عذاب النّار يوم القيامة، وبالدّعوة إلى الله -تعالى- تتلاشى مظاهر الفحش والفجور والمنكر في المجتمع وتظهر علامات الخير والبرّ والمعروف، وتُردُّ دعوات المُضلّين والمشكّكين في دين الإسلام، وإظهار عزّة الإسلام والمسلمين والنُّصر لهم، أمّا الثّمرات العائدة للدّاعية من دعوته إلى الإسلام أنّ فيها تثبيت له على طريق الحقّ والصّواب، وتحصيل للأجر الكبير من الله -تعالى- الذي سيستمرّ معه حتى بعد وفاته، كما يحصل له ولأهله البركة في حياتهم وأرزاقهم، ويكسب بدعوته إلى الإسلام المحبّة والألفة في قلوب النّاس من حوله.

حال السّلف في الدّعوة إلى الله

اهتمّ السّلف الصالح بالدّعوة إلى الإسلام وإلى الله عزّ وجلّ، واجتهدوا في ذلك اجتهاداً عظيماً، وقد ورد في ذلك عدّة أحداثٍ وأقوال؛ منها:

- نادى الإمام مالك بنٍ دينار لصّاً دخل ليسرقه فلم يجد شيئاً، وقال له: (لم تجد شيئاً من الدنيا، فهل تريد شيئاً من الآخرة؟)، فقال اللّص: (نعم)، قال له الإمام: (قم فتوضأ وصلّ ركعتين)، ففعل اللّص، ولمّا سُئل الإمام مالك عن اللّص قال: (جاء يسرق منّا فسرقناه).
- قال الإمام عبد القادر الجيلانيّ: (أراد الله مني منفعة الخَلْق؛ فقد أسلم على يديّ أكثر من خمسمئة، وتاب على يديّ أكثر من مئة ألف، وهذا خير كثير).
- قال الحافظ عمر البزّار عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (كان شيخ الإسلام ابن تيمية في حال صغره إذا أراد المضيّ إلى المكتب يعترضه يهوديّ، وكان بيت هذا اليهوديّ في طريق الشّيخ، فكان يعترضه بمسائل يسأله عنها، وكان الشيخ يجيبه عنها سريعاً، حتى تعجّب اليهوديّ منه، ثمّ إنّه صار كلّما اجتاز به يخبره بأشياء ممّا يدلّ على بطلان ما يدينه من دين اليهوديّة، فلم يلبث أن أسلم الرجل وحَسُن إسلامه، وكان ذلك ببركة الشّيخ على صغر سِنّه).